٢ – الدرس البلاغى

البلاغة الاصطلاحية أى علوم البلاغة وهى المعانى والبيان والبديع ، هذه البلاغة أو هذه العلوم جاءت وسيلة تعليمية تهدف إلى مساعدة ذوى الملكات والمواهب على تأليف الكلام البليغ وهو الأدب .

وقد انتهت الدراسة الحديثة إلى أن البلاغة بنت النقد الأدبى ، منه جاءت، وعليه عولت فى تقنين ما قننت تحلية أو تخلية .

وإذا كانت قد جاءت بمعناها العلمى بعد النقد الأدبى نظريًا ، فإنها قد جاءت قبله عمليا على هيئة ألوان بلاغية حسنة ومظاهر جمالية معجبة ؛ وذلك أنها قد جاءت ضمن الأدب بمعنى أنها ولدت معه وطيَّه، فكما اضطردت اللغات قبل أن يعرف متكلموها القواعد ويفطنوا إلى وجودها ، وقع الأدباء على الصور البلاغية دون معرفة نظرية بها ، وبلا وعى تحليلى لطرق استعمالها ، كل ما هنالك أن ملكات الأدباء قد انتزعتها من الأشياء ، أو أن الأشياء قد أملتها على الأدباء ، فالشاعر يرى بين الأشياء التى تبدو منفصلة ومتباعدة روابط كثيرة وصلات متعددة ، فإذا ضم بعضها إلى بعض بطريقة فنية حصل على صورة بيانية : تشبيه أو مجاز أو كناية .

وهو فى التشبيه يحتفظ بالطرفين كليهما لأكثر من سبب ولا عجب ، فكما أنه لا يمكن تصور الميزان ذى الكفتين بدون الكفتين لا يمكن تصور التشبيه بدون الطرفين ، وقد يقوِّى الصلة بينهما بأن يحذف

الأداة أو وجه الشبه أو بأن يحذف الأداة ووجه الشبه حتى يصل إلى ما يعرف فى الاصطلاح البلاغى بالتشبيه البليغ .

وفى الاستعارة يستغنى بأحد الطرفين عن الآخر أو يدمج أحدهما فى الآخر ويجعل منهما شيئًا واحدًا .

ولعله لهذا كان التشبيه أكثر شيوعًا من الاستعارة فى العصور الاتباعية (الكلاسيك) وهى العصور التى يكون الشعراء فيها أقل حدة فى الخيال وأكثر انصياعًا للواقع ، وكانت الاستعارة أكثر شيوعًا من التشبيه فى العصور الابتداعية (الرومانتيك) وهى العصور التى يشطح فيها الخيال ويجمح ، فلا يكون الواقع قيدًا عليه ، أو على الأقل لا يكون قيدًا ثقيلًا .

وللكناية من الجمال ما للتشبيه والاستعارة ، ثم هى بعد أسلوب حضارى ، فيها التلميح دون التصريح، والإشارة لا العبارة ، وفيها الدعوى ودليلها والقضية وبرهانها ، ومجيء الكلام مع دليله أقوى له وأدعى إلى قبوله من مجيئه بلا دليل أو برهان .

ومن قبيل الدراسة الكلية للصور البلاغية ما عمد إليه بعض النقاد من تقسيم مفهوم التعبير الفنى إلى لحظتين أو إلى عمليتين ؛ لحظة أو عملية التعبير بالمعنى اللغوى للكلمة أعنى الوصول إلى التعبير أيا كان التعبير ، ثم لحظة أو عملية تجميل التعبير أعنى تلوين التعبير وتحسينه ، وعلى هذا الأساس جعلوا التعبير نوعين هما :

(١) التعبير العادى .

(٢) التعبير المزخرف .

ويرى كروتشه أن هذه التفرقة بين التعبير وتلوين التعبير منتشرة فى ميادين الفن المختلفة ، ولكنها قد نمت واتسعت فى الفن القولى بوجه خاص ، بل لقد حملت اسمًا مشهورًا هو البلاغة[1] .

والبلاغة فى اعتقاده هى الميدان الذى تنفصل فيه الصور الجمالية عن التعبير فى الدرس البلاغى بقصد الشرح أو التحليل ، فكثير من الدارسين يعنون عناية خاصة بصور التعبير من تشبيه واستعارة وكناية وبديع ويفردونها بالبحث والدراسة وقد يتناولونها منفصلة عن التعبير الذى وردت فيه مما جعل بعض الناس يظنون أن لها قيمة فى ذاتها ، ومما باعد بل فرق بين البلاغة بمعنى الدرس البلاغى والبلاغة بمعنى الكلام البليغ .

لكن هذا النوع من الدراسة ، بل قل : هذا النوع من التجريد لم يعرفه أدباؤنا الأوائل وإن كانوا قد هُدوا إلى الألوان البلاغية فقالوها ، وسواء قصدوها أو لم يقصدوها فإنهم زرعوها فى إنتاجهم الأدبى منذ كان لهم إنتاج أدبى بحيث لم يخل أدب من بلاغة . ولو خلا أدب من بلاغة لكان كلامًا عاديًا ولما سُمى أدبًا .

هذه البلاغة هى روح الأدب والفصل بينهما فصل للروح عن الجسد فما العمل إذًا ؟.

لا مندوحة لنا عن أن نعلم أبناءنا الأدب أولاً والبلاغة ثانيًا بلا فاصل زمانى أو مكانى أو منهجى .

---

(١) قضايا النقد الأدبى والبلاغة ص ٢٥٤ .

وبعبارة أخرى : نعلم الأدب إطارًا ، والبلاغة صورة أى من خلال الأدب ، لنرجع بدرس البلاغة إلى فطرته التى فطره الله عليها بأن ندرسها فى إطارها الذى هو جسمها ، فهما كيان واحد وهيولا واحدة .

لنلغ درس البلاغة النظرى ولنجعله درسًا تطبيقيًا فنيًا ، درسًا كشفيًا نتعرف فيه وبه على الصورة الأدبية الجميلة ، ولتكن هذه الصورة من فروع البلاغة ما تكون، من البيان أو من المعانى أو من البديع .

ماذا ؟ !!.

ألم تسعها لغتنا منذ كانت لغة ؟ !.

بلى . قد وسعتها وصارت بها لغة أدب ، وهذا معناه أنها قد وسعتها واتسعت بها إلى حدود جديدة وبعيدة عن حدودها الأولى فى المعجم .

ثم ماذا ؟.

هل وردت الألوان البلاغية فى كتب البلاغة العربية بلا أمثلة ؟ !!.

كلا ، وإنما وردت فى أمثلة هى القمة بل قمة القمة من الناحية الأدبية ، شعرًا من أحسن الشعر ولأحسن الشعراء ، ونثرًا قرآنيًا أو نبويًا أو ما يليهما .

وإذا كنا نفكر باللغة ، ونعبر فى الفن القولى وهو الأدب باللغة ، فلنتوكل على الله ولنجعل الدرس البلاغى تحليلاً لهذا الفن القولى ووقوفًا على ما فيه من صور بلاغية .

* * *

ويجدر التنبيه إلى أن الالتزام بالتسميات القديمة للأنواع البلاغية خضوعًا لقاعدة (لامشاحة فى الاصطلاح) هذا الالتزام غير وارد وفى غير محله ، وأولى ثم أولى أن نمنح أنفسنا الحرية – كامل الحرية – فى التسمية ، فذلك مما يسهل علينا مهمتنا ويختصر جهدنا ووقتنا .

وعلى سبيل المثال نقول : ماذا لو سمينا الطباق والمقابلة والمشاكلة والجناس ومراعاة النظير ورد العجز على الصدر واللف والنشر ونحوها .

أقول : ماذا لو سمينا كل هذه الأمور باسم واحد هو (التناسب) ومعلوم أن مفهوم (التناسب) يتحقق بالتخالف كما يتحقق بالتوافق . على أن هذه قضية أخرى فلنرجئها إلى حديث آخر .

ولا بأس من أن نجعل درس البلاغة تحت عنوان (من أحسن ما قرأت) أو (من أحسن ما سمعت) لنورد فيه ما يعجبنا من القصائد والفصول والخطب ، مبينين سر جمالها وأوجه حسنها .

ولنسلك – نحن أبناء العقد الأخير من القرن العشرين – فى تكوين الملكات الأدبية مسلك ابن خلدون صاحب ما يسمى فى النقد الأدبى الحديث بالإطار الثقافى أو بالبيئة الفكرية .

وهذه مقتطفات مما قاله فى هذا الصدد :

اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطًا أولها الحفظ من جنسه ؛ حتى تنشأ فى النفس ملكة تنسج على منوالها ، وعلى مقدار جودة

المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم جودة الملكة من بعدهما ؛ فبارتقاء المحفوظ فى طبقته من الكلام ترتقى الملكة الحاصلة .. فملكة البلاغة العالية الطبقة فى جنسها إنما تحصل بحفظ العالى فى طبقته من الكلام [1] ..

ومن يكمل قراءة ابن خلدون يجده يفرق بين شتى المؤثرات فى تكوين الملكات من ناحية ما تحدثه أو تعكسه ، وهو يتنبأ بخصائصها الفنية متى اكتشف روافدها وعرف نوع ثقافتها .

ونحن نستعين فى كسر تخوف المتخوفين من المنهج التطبيقى فى دراسة البلاغة العربية بأن نعيد على مسامعهم أن الدرس البلاغى غير مقصود لذاته ، بل لما نجنيه من ثمراته ، أى أنه وسيلة لغاية .

وقد أبان أبو هلال فى فاتحة كتابه (الصناعتين) عن هذه الغاية فقال :

وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب .

وإذا كان هذا الكلام من أبى هلال يعنى أن الغرض من البلاغة إنما هو غرض دينى يتمثل فى معرفة إعجاز القرآن معرفة قائمة على التذوق الفنى ، وعلى البصر بالأساليب ، فإن ذلك يسرى على أى نص أدبى ، وهذا يعنى أن الوظيفة الأولى للبلاغة إنما هى إقدار المرء على التذوق

---

(١) المقدمة طبعه وافى : ص ١٢٩٦ – ١٣٠٣ .

الفنى وعلى التعايش بكل القوى المعنوية فى الإنسان مع النصوص الأدبية دينية كانت أو دنيوية .

ونمضى مع أبى هلال ، فنجده يكمل العمل الوظيفى للبلاغة بقوله :

« وهو أيضًا إذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشىء رسالة ، وقد فاته هذا العلم ، مزج الصفو بالكدر ، واستعمل الوحشى العكر فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل » .

يصنع قصيدة أو ينشىء رسالة هذا هو الغرض المتمم للغرض السابق ، وبه معه تكمل رسالة البلاغة ويتحدد مجالها .

وإذا كنت قد أومأت إلى أننا سندرس البلاغة من خلال مختارات أدبية ، فإننى اقترح أن تكون هذه المختارات هى كل النصوص المقررة أو بعضها ، تأكيدًا لدمج البلاغة فى الأدب من ناحية ، ولنضيف ساعات الدرس البلاغى إلى ساعات الدرس الأدبى فى الخطة الدراسية الحالية من ناحية .

وليكن معلومًا أننا لا نريد بل لا نقبل أن تفقد اللغة العربية شيئًا من وقتها المخصص لها .

لكن أيبقى الدرس البلاغى بدون كتب تؤلف فيه ، وتكون بأيدى طلابه ومدرسيه ؟.

كلا . وإنما لابد من كتب تكوّن مادته وتزيل وحشته ولو أنها ستكون هى هى كتب الأدب ، كما سيكون مدرس البلاغة هو هو مدرس الأدب ، ولهذا فحبذا لو اجتمع بعض الصفوة من المتخصصين

فى الأدب والبلاغة ووضعوا معًا خطة هذه الكتب ، بل حددوا وحداتها المكونة لها ثم ألفوها أو أشرفوا على تأليفها .

وأتمنى أن تتبنى إحدى الجامعات السعودية هذه المسألة بأن تستضيف إلى رحابها تلك الصفوة وتتفق معهم على تنفيذها، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت والله الموفق .